تنظر إليَّ وأنظر إليها ومن أن تتحدث إليَّ وأسمع منها وأرد عليها رجع الحديث؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من الموجدة والغيظ ما كان يردني أحيانًا إلى بعض ما كنت فيه؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلامًا وشقاءً إلى شقاء فترسل عبراتها حينًا وتنهداتها حينًا آخر، وربما أثار في نفسها غضبًا تجتهد في حبسه أن ينفجر. وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط قليلًا قليلًا، وآتي بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع الانتقال، ثم تثوب الحياة إليَّ في قوة كأنما كان بينها وبيني سدٌّ، فلما أزيل أخذت تغمرني من كل وجه، وإذا أنا أنهض وأسعى، وإذا أنا أسترد حظًّا من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث. وأمي تدور حولي وتتلطف لي وتغلو في العناية بي، وتود لو تجد إلى نفسي سبيلًا، وتنفق جهودًا مثيرة للرثاء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها وبيني، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء، وقد أُلقي بين نفسها ونفسي سورٌ صفيق فهما لا تلتقيان. ومع ذلك فإن خاطرًا من الخواطر كان يتردد في نفسي ترددًا لا يكاد ينقطع، وكنت أدافعه دفاعًا متصلًا؛ لأني كنت أجد في اضطراب نفسي به ألمًا فيه الخوف والرعب وفيه البغض والحقد، فقد كنت أسأل نفسي وأريد أن أسأل أمي أو أن أسأل بعض من حولي عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المريد: أين هو وأين استقرت به الدار؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لي فيما كان يتمثل لي من الصور أثناء العلة، وما أذكر أني سمعت له ذكرًا أو عرفت من أمره خبرًا منذ أخذ البرء يسعى إليَّ ويدبُّ في أعضائي، وما أذكر أن أحدًا من أهل الدار قد أشار إليه أو ألمَّ بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل الدار وأشترك معهم في بعض شئون الحياة، وكنت مع ذلك أريد أن أعرف من أمره بعض الشيء، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء، أحيٌّ هو أم ميت؟ أأفلت بجريمته أم أخذه السلطان؟ أمقيم هو في القرية أم ذهب في الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب؟

ما أكثر ما ترددت في نفسي هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها صدري وما أكثر ما همَّ لساني أن ينطق بها، ولكني كنت أحبسها في ضميري حبسًا خوفًا منها وبغضًا لهذا الرجل الأثيم، على أني لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمري ما تعودت أن أملكه فسألت أمي وقد خلوت إليها، سألتها وأنا أكاد ألوي وجهي عنها: أين هو؟ وما أسرع ما فهمت عني، وما أسرع ما أجابتني وهي تشير إليَّ بالصمت: لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب. قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة سخينة، ولكن بكاءها لم يدعُ بكائي، وحزنها لم يُثِر حزني فقد كان بين نفسها وبيني سور صفيق. لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب